مفهوم الذات الصهيونية
بين الأسطورة والواقع

أ . السيد ياسين

مقدمة :

بغروب شمس عام ١٩٩٧ تكون دورة من دورات التاريخ قد اكتملت ، ونعنى مرور مائة عام على الصهيونية . وفى الوقت الذى شغلت إسرائيل نفسها طوال عام كامل بالاحتفال بهذا الحدث ، وذلك من خلال مظاهرات سياسية وثقافية شتى ، هدفت إلى تقييم حصيلة هذا القرن الممتد الذى زخر بالأحداث السياسية الدرامية وازدحم بالحروب الإسرائيلية العربية الدامية ، وذلك على الجبهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والتكنولوجية ، فإن الدوائر الفكرية العربية لم ترق لمستوى أهمية الواقعة . ولم تشغل نفسها - كما ينبغى أن تفعل - بتحليل هذا القرن الصهيونى ، ورصد أسباب الفشل العربى فى المواجهة ضد الصهيونية ، وتحديد لحظات النجاح فى هذه المسيرة الدامية الطويلة ، ولعل أهمها على الإطلاق الانتصار العربى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، والانتفاضة الفلسطينية .

ولولا مبادرة من معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، فى عقد ندوة بتاريخ ٢٩ ديسمبر ١٩٩٧ أسهم فيها ببحوثهم مجموعة مختارة من الباحثين العرب وكان عنوانها « مائة عام على الصهيونية » لكانت الواقعة مرت بدون أن يلتفت أحد إلى أهمية الوقوف أمامها بالبحث والتحليل بل

وممارسة النقد الذاتى .

ويمكن أن نضيف إلى هذه المبادرة محاولة أعلن عنها الأستاذ توفيق أبو بكر فى نشرة « المنتدى » التى يصدرها منتدى الفكر العربى فى عمان ، وتبدو أهمية هذه المحاولة الفكرية فى كونه قد قام بجمع شهادات كبار رجالات العرب وحاورهم حول مائة عام على الصهيونية . ويقرر أن الهدف كان « وقفة استراتيجية مطولة لأهل الفكر والخبرة فى وطننا العربى لمراجعة حصاد القرن بأفق علمى عميق ، وذلك لاستخلاص الدرس ومحاولة رسم استراتيجية للقرن القادم ، تستوعب الدروس والمتغيرات وتنهض بأعباء التحديات فى عالم جديد ما زالت معالمه قيد التشكيل » . ويقرر الأستاذ أبو بكر فى بداية مقالته الموجزة ، وهو يعلن عن قرب صدور هذه الشهادات العربية فى كتاب « مازلنا عربا وفلسطينيين ، وبعد مائة عام على الصهيونية السياسية التى وضعت قواعدها فى مؤتمر بازل (آب /أغسطس ١٨٩٧) نعانى من نتائج قرن من المأساة ، حفل بانكسارات كبرى تخللتها نقاط ضوء ، وانتصارات صغيرة فى معارك المواجهة والمقاومة والانتفاضة ، ومازال الصراع مفتوحا رغم تسويات متعثرة ، هنا وهناك ، تبدو بعيدة عن إرساء سلام عادل ووطيد وقابل للدوام ، وتبدو أقرب إلى الهدنة ومراجعة الحسابات منها إلى أى شىء آخر » .

إن مرور مائة عام على الصهيونية يجعلنا – وفاء بالمسئولية العلمية – نقف بالدرس والتحليل والنقد لهذه الأسطورة الدينية التى ذهبت إلى أن « شعب اللّه المختار » لم ينفك أعضاؤه منذ بداية الشتات اليهودى عن أن يحلموا بالعودة إلى فلسطين « أرض الميعاد » . وهى الأسطورة التى بنيت عليها أيديولوجية سياسية هى

الصهيونية ، والتى نجح دعاتها البارزون وعلى رأسهم تيودور هرتزل أن ينقلوها من مصاف « اليوتوبيات السياسية » التى حفل بها القرن التاسع عشر ، إلى عالم الواقع الفعلى ، وذلك بفضل الجهد الفكرى والتنظيم الدقيق والتعبئة الفعالة لليهود . وقد أثمرت هذه الجهود جميعا إعلان الدولة الإسرائيلية عام ١٩٤٨ ، تحقيقًا لنبوءة هرتزل الذى أعلن فى المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل ١٨٩٧ أن دولة إسرائيل ستنشأ بعد خمسين عاما من انعقاد المؤتمر .

مائة عام على الصهيونية حفلت بالصراع الدامى بين المستوطنين اليهود والشعب الفلسطينى ، ثم بعد عام ١٩٤٨ بين الإسرائيليين والعرب ، تدعونا إلى أن نقوم بتحليل مفهوم الذات الصهيونية من واقع الكتابات الإسرائيلية نفسها .

مشكلة البحث :

لماذا اخترنا « مفهوم الذات الصهيونية » ليكون موضوعا لدراستنا بمناسبة مرور مائة عام على الصهيونية ؟

لفت نظرى فى إحدى جولاتى فى شبكة الإنترنت موقع صممته وزارة الخارجية الإسرائيلية من خلال السفارة الإسرائيلية فى واشنطن . وعنوانه « مئوية الصهيونية ١٨٩٧- ١٩٩٧» وله عنوانان فرعيان : ١٩٩٧ عام الصهيونية ، والعيد المئوى للمؤتمر الصهيونى الأول . ويتضمن الموقع ثمانية عشر مقالا متنوعا تبدأ بتعريف الصهيونية وتنتهى بمقال عن « نصف قرن من الثقافة فى إسرائيل » ويتضمن الموقع مقالات متعددة عن الإنجازات الصهيونية والإسرائيلية فى مختلف المجالات .

وواتتنى فكرة القيام بدراسة تحليلية لهذه العينة الممثلة للكتابات « الرسمية » الإسرائيلية ، حين دعانى معهد البحوث والدراسات العربية إلى الاشتراك فى الندوة

التى نظمها وأشرت إليها فى المقدمة .

وحدد اختيار الموضوع خبرتى السابقة فى إعداد كتابى « الشخصية العربية بين مفهوم الذات وصورة الآخر » الذى أصدره فى طبعته الأولى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام عام ١٩٧٣ . وقد بلورت فى هذا الكتاب منهجية محددة فى دراسة سمات الشخصية القومية تقوم على أساس التفرقة بين مفهوم الذات - Self concept وصورة الآخر مع الالتفات إلى العلاقة الجدلية بينهما . وقد قمت فى هذه الدراسة بتحليل الكتابات العربية التى تطرقت من باب النقد الذاتى لأسباب هزيمة حرب يونيو ١٩٦٧ ، كما أننى - من ناحية أخرى - قمت بتحليل نقدى لصورة العرب لدى الإسرائيليين على مستوى النخبة السياسية والباحثين والجماهير .

الإطار النظرى والمنهج :

١ - مصطلح « مفهوم الذات » - Self concept من المفاهيم الأساسية فى علم النفس . ولا يتسع المقام لتتبع التطور التاريخى للمصطلح ، والذى يرده بعض الباحثين إلى الفيلسوف الفرنسى الشهير رينيه ديكارت ، وخصوصا تركيزه على إدراك الفرد لذاته من خلال منهجه فى الشك ، وعبارته الشهيرة « أنا أشك - إذن - أنا موجود » غير أن كتابات سيجموند فرويد تعد نقطة حاسمة فى بلورة المفهوم من خلال اهتمامه بالعمليات الذهنية الداخلية (١٩٠٠) ، ثم تأتى بعده ابنته آنا فرويد (١٩٤٦) لتعطى أهمية خاصة لنمو الأنا والتأويل الذاتى . غير أنه ينسب إلى عالم النفس الأمريكى كارل روجرز (١٩٤٧) الذى اهتم اهتماما خاصا بالذات الإنسانية . وجاءت فترة أهمل فيها هذا المفهوم نسبيا - لأسباب شتى - ثم سرعان

ما عاد إليه علماء النفس والإدارة من جديد ، ليكتشفوا أن استخدامه يمكن أن يؤدى إلى نتائج باهرة فى مجال البحث والعلاج والتعليم والإدارة .

وأبسط تعريف لمفهوم الذات أنه « الصورة الذهنية التى يشكلها فرد معين عن نفسه » . غير أنه ينبغى الالتفات إلى سمات مفهوم الذات والتى تنحصر فى ثلاثة : أنه تتم صياغته من خلال الخبرة العملية والواقعية ، وأنه عادة ما يكون منظما ، بمعنى أنه يتسم بالاتساق ، وأخيرا أنه يتسم بالحركة والديناميكية ، بمعنى أنه يمكن أن يتغير وفقا لمتغيرات داخلية أو ظروف خارجية .

وتبدو أهمية مفهوم الذات على وجه الخصوص حين ينتقل من مجال علم النفس الفردى والاجتماعى ، إلى علم نفس العلاقات الدولية ، لتفسير الاتجاهات الأساسية لشعب ما ، سواء فى نظرته لذاته ، أو فى إدراكه للآخر .

وقد استخدم بعض علماء النفس الإسرائيليين هذا المفهوم بشكل بارع لتفسير الشخصية اليهودية ، وعلاقة هذا التفسير بصعود الصهيونية كأيديولوجية سياسية ، ونجاحها فى تعبئة يهود العالم وإنشاء الدولة الإسرائيلية عام ١٩٤٨ . ومن أبرز هؤلاء : جاى جونين أستاذ علم النفس اليهودى الأمريكى فى كتابه « تاريخ نفسى للصهيونية » الصادر فى نيويورك عام ١٩٧٦ ، وسيمون هيرمان فى كتابه « الهوية اليهودية : منظور نفسى اجتماعى » الصادر فى كاليفورنيا عام ١٩٧٧ ، وروفائيل باتاى فى كتابه « العقل اليهودى » الصادر فى نيويورك عام ١٩٧٧ .

ويتميز جونين من بين هؤلاء العلماء الإسرائيليين بأنه أكثرهم موضوعية فى تعرضه لمفهوم الذات اليهودية . وقد نجح فى أن يضع يده على مفتاح أساسى لفهم الشخصية اليهودية ، من خلال تركيزه على مفهوم الذات ونظرتها إلى الآخر .

ويقرر أنه استمرارًا لتقاليد دينية وممارسات ثقافية واجتماعية ممتدة يفرق اليهود بين أنفسهم وغير اليهود . اليهودى تقليديا يعتبر نفسه أنه يعمل عقله وفكره فى المقام الأول ، فى حين أن غير اليهودى يمكن أن يقنع بالأعمال اليدوية التى لا يقبل اليهودى ممارستها باعتبارها مهينة له .

ومن هنا يمكن القول إن التفرقة الحاسمة بين اليهود والأغيار تعد أساسية لفهم أعماق الشخصية اليهودية وأبعاد الشخصية الإسرائيلية من بعد . وهذه التفرقة هى التى شكلت سمة أساسية لليهود وهى إحساسهم بالسمو إزاء الأغيار الأقل تعليما وثقافة . وكذلك الشعور بالدونية إزاء المعاملة الاجتماعية من الأغيار التى يتعرضون لها ، والتى تحمل فى طياتها الاحتقار .

وقد التفت هرتزل إلى هذه السمة فكتب فى يومياته بتاريخ ٢٢ يوليو ١٨٩٥ تحت عنوان « مبحث فى النفسية القومية » أن اليهود الذين هم شعب محتقر تواقون للإحساس بالشرف والكرامة ، ومن هنا فإذا استطاع شخص أن يعبئهم تحت هذا الشعار ، فإنه يمكن له أن يقودهم . وهكذا أقنع هرتزل اليهود أنه لا سبيل أمامهم سوى تبنى الصهيونية أيديولوجية سياسية ، تؤدى مع الزمن إلى إنشاء دولة إسرائيل التى سيحسون تحت علمها بالشرف والكرامة .

وهكذا يمكن القول : إننا نستمد إطارنا النظرى فى الدراسة من علم النفس الاجتماعى للعلاقات الدولية ، وهو فرع من الفروع العلمية الذى لقى ازدهارًا واسعًا وتطبيقات خلاقة فى العقود الثلاثة الأخيرة ، مع تركيز على « مفهوم الذات » والآخر كما ينعكس فى الكتابات الإسرائيلية الاحتفالية الرسمية بمرور مائة عام على الصهيونية .

٢ – وقد كان أمامنا فيما يتعلق بالمنهج وأدوات البحث اختيارات متعددة . لدينا أسلوب تحليل المضمون ومنهج تحليل الخطاب ، ومنهج تحليل حقول الدلالة ، ومنهج تحليل مسار الذهنية .

وقد وضع الباحث اللبنانى المعروف نصيف نصار منهجا يتقاطع مع هذه المناهج المطروحة ، وإن كان لا يتطابق تماما مع أى منها ، فى كتابه المهم « تصورات الأمة المعاصرة : دراسة تحليلية لمفاهيم الأمة فى الفكر العربى الحديث والمعاصر » المنشور فى بيروت ، الطبعة الثانية عام ١٩٩٤ . وهو يطلق عليه منهج الأنساق المتكاملة لتحليل التصورات الأيديولوجية . وهو يدرس فى كل نظام أيديولوجى أربع عمليات : تحليل نسق المقومات ، وتحيل نسق العلاقات ، وتحليل نسق العوامل ، وتحليل نسق الوظائف .

ويستحق هذا المنهج – نظرا لتكامله وشموله – أن يختبر فى دراسة مفهوم الذات الصهيونية ، غير أنه نظرا لأن دراستنا مجرد دراسة استطلاعية ، فنحن نقنع فى هذه المرحلة بالتركيز فى فئة ماذا قيل عن الموضوع الرئيسى والموضوعات الفرعية ، وفى فئة كيف قيل على بعد الذاتية والموضوعية . وهاتان الفئتان ماذا قيل وكيف قيل هما أهم الفئات الرئيسية التى يعتمد عليها أسلوب تحليل المضمون .

عينة الدراسة :

يتكون موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على شبكة الإنترنت والذى جاء تحت عنوان « مئوية الصهيونية » من ثمانى عشرة مقالة . منها أربع مقالات تعريف بشخصيات يهودية هى على التوالى : تيودور هرتزل ، ودافيد بن جوريون ، وحاييم وايزمان ، وزئيف جابوتنسيكى ، وأربع عشرة مقالة تشمل موضوعات شتى . وقد

آثرنا أن نستبعد من التحليل مقالات التعريف بالشخصية ، وبقى أمامنا إذن ١٤ مقالة وبيانها كما يلى :

١ - الصهيونية : مقدمة مقتطفة من كتاب الأستاذ بنيامين نيوبرجر .

٢ - سير الأحداث - إعداد المركز الإعلامى الإسرائيلى .

٣ - الفلسفات الصهيونية ، إعداد المركز الرئيسى للإعلام .

٤ - من « الهاشومير » إلى قوات الدفاع الإسرائيلية ، الكولونيل متقاعد الدكتور مائير بال .

٥ - العائدون إلى الأرض - نافاتالى جريتوود .

٦ - الاستيطان اليهودى فى أراضى إسرائيل - المركز الإعلامى الإسرائيلى .

٧ - الحروب العربية الإسرائيلية - نينائل لورش .

٨ - أهداف الصهيونية اليوم - اليعازر شويد .

٩ - حركات الشباب - المركز الإعلامى الإسرائيلى .

١٠ - قاموس الصهيونية - المركز الرئيسى للإعلام .

١١ - الهجرات والاستيعاب - المركز الإعلامى الإسرائيلى .

١٢ - خمسون عاما من العلم والتكنولوجيا فى إسرائيل - دان أنيزبرج .

١٣ - خمسون عاما من الإنجازات الاقتصادية - موشى فلبر .

١٤ - خمسون عاما من الثقافة فى إسرائيل ، أشر ويل .

إطار التحليل :

وقد وضعنا إطارًا لتحليل هذه المقالات ينقسم إلى خمسة موضوعات : الصهيونية والتاريخ والتعددية ، الحركة الصهيونية والعمليات الاجتماعية ، والمؤسسات والأنساق ، والعلاقة مع الآخر ، والصهيونية وما بعدها .

أولاً : الصهيونية والتاريخ والتعددية :

نحلل تحت هذا العنوان ثلاث مقالات أساسية : الأولى تعريف بالصهيونية ، وهى تعكس بقوة مفهوم الذات الصهيونية ، بكل ما يتضمنه من تحيزات فى تحديد العلاقة بين الذات والآخر ، أو بعبارة أخرى اليهود والأغيار ، والثانية تسرد التاريخ الصهيونى من عام ١٨٧٠ حتى الوقت الراهن ، والثالثة تصنف الفلسفات الصهيونية الأساسية .

١ - ويبدأ نيوبرجر فى المقالة الأولى **تحديد الأصل التاريخى لكلمة الصهيونية** Zionism فيقرر أنها هى الكلمة التوراتية Zion التى غالبا ما استخدمت كمرادف للقدس وأرض إسرائيل (YEretz - Eretz) . ويضيف الكاتب الصهيونى أن الصهيونية هى أيديولوجية تعبر عن أشواق يهود العالم التى تركزت حول وطنهم التاريخى « زيون » أى أرض إسرائيل .

وهذا الأمل فى العودة إلى الوطن نجد التعبيرات الأولى عنه لدى اليهود الذين هاجروا إلى بابليون منذ ألفين وخمسمائة سنة مضت ، وهو الحلم الذى تحول من بعد إلى حقيقة . وهكذا - كما يقرر - فالصهيونية السياسية التى تبلورت فى القرن التاسع عشر لم تخترع لا المفهوم ولا ممارسة العودة . على العكس فهى وضعت يدها على فكرة قديمة وحركة نشطة مستمرة ، وكيفتها لكى تشبع حاجات اليهود

المحدثين وتتفق مع روح الزمن .

وهو يرى أن جوهر الصهيونية يظهر فى « إعلان إنشاء دولة إسرائيل » فى ١٤ مايو ١٩٤٨ والذى ينص على أن :

« أرض إسرائيل كانت موطن الشعب اليهودى وهنا صيغت هويتهم الروحية والدينية والسياسية . هنا ظهروا لأول مرة كدولة ، وخلقوا قيمهم الثقافية والتى لها دلالة قومية وعالمية وأعطوا العالم الكتاب الخالد الذى هو كتاب الكتب . وبعد أن أجبروا على الهجرة من أرضهم ، ظل الشعب معتقدا فيها خلال تشتتهم ، ولم يتوقف أبدا عن الصلاة والأمل لعودته إليها ، ولإعادة تأسيس حريته السياسية على أرضه » .

ويحاول الكاتب الصهيونى تأسيس الأسطورة الدينية والسياسية للصهيونية فيقرر أن فكرة الصهيونية تعتمد على العلاقة بين الشعب اليهودى وأرضه ، وهى صلة بدأت منذ حوالى ٤٠٠٠ عاما حين استقر إبراهيم فى كنعان والتى عرفت بعد ذلك بأرض إسرائيل . ومن هنا يمكن القول إن مفهوم « أرض إسرائيل » جوهرى بالنسبة للتفكير الصهيونى ، باعتبارها - كما يقرر - الموطن التاريخى للشعب اليهودى ، والاعتقاد بأن الحياة اليهودية فى أى مكان خارجها هى حياة مهجر . وعبر القرون واصل اليهود ارتباطهم القوى والفريد بموطنهم التاريخى وعبروا عن أشواقهم إليه من خلال الطقوس الدينية والأدب .

وربما لم تكن الصهيونية الحديثة قد نشأت واشتد عودها فى القرن التاسع عشر لو لم يكن اليهود تعرضوا لموجات من مناهضة السامية ، والتى سبقتها قرون من الاضطهاد . ذلك أنه عبر الزمن طرد اليهود من ألمانيا وفرنسا والبرتغال وأسبانيا

وإنجلترا وويلز ، مما أدى إلى تأثيرات عميقة على النفسية اليهودية فى القرن التاسع عشر ، وفى ظل هذا المناخ ظهر زعماء الصهيونية الأوائل وأبرزهم موسى هيس الذى – كما يقرر الكاتب الصهيونى – هزته المذبحة الدموية لليهود فى دمشق عام ١٨٤٤ ، والذى أصبح من بعد رائد الصهيونية الاشتراكية . وليون بنسكر الذى هزته مذابح اليهود عامى ١٨٨١ ، ١٨٨٢ والتى أعقبت اغتيال القيصر الكسندر الثانى ، والذى تولى من بعد قيادة « أحباء صهيون » Hibbat Zion ، وتيودور هرتزل والذى باعتباره صحفيا فى باريس ، خبر الحملة الضارية المضادة للسامية فى قضية دريفوس عام ١٨٩٦ ، والذى حول الصهيونية إلى صهيونية سياسية .

ويلفت النظر أن الكاتب الصهيونى يعتبر الصهيونية السياسية هى حركة التحرر الوطنى للشعب اليهودى ، والتى ظهرت فى القرن التاسع عشر فى سياق القومية الليبرالية التى سادت أوربا . وقد ألفت الصهيونية – كما يقرر – بين هدفى القومية الليبرالية وهما : التحرير والوحدة .

وكان ظهور الصهيونية السياسية رد فعل لفشل الهاسكلاه (أى حركة التنوير اليهودية التى حاولت حل المشكلة اليهودية) . والتفسير الصهيونى لهذا الفشل أن « التحرر الشخصى » والعدالة لا يمكن تحقيقهما ، لأن المشكلات القومية لا تحلها سوى حلول قومية .

وعن علاقة الصهيونية بالقومية العربية يقرر الكاتب الصهيونى أن أغلب القيادات الصهيونية كانت تعرف أن هناك سكانا عربا فى أرض فلسطين ، غير أنهم نظروا إليهم باعتبارهم أفرادا متفرقين لا تجمعهم أى هوية سياسية . ويقرر أن أغلب القادة ظنوا أنه يمكن أن يتعاون اليهود مع الفلسطينيين ، غير أن الممارسة أثبتت

العكس ، فقد قابلت الهجرة اليهودية معارضة عربية شديدة ، واشتد الصراع فى الفترة من ١٩٣٦ حتى ١٩٤٧ . وصدر قرار الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ . بإنشاء دولتين : واحدة لليهود والأخرى للعرب . قبل اليهود القرار وأعلنت الدولة الإسرائيلية فى ١٤ مايو ١٩٤٨ ، فى حين رفض العرب القرار .

ويخلص الكاتب الصهيونى إلى أن الصهيونية مازالت نشطة وتعمل بين اليهود فى المهجر باعتبار أن دولة إسرائيل هى مركز الحياة اليهودية .

ويمكن القول إن الكاتب حاول أن يغطى الأصول التاريخية لكلمة الصهيونية بناء على صياغة أسطورة دينية وسياسية متكاملة ، فى ضوء اهتمام بتأكيد الاستمرارية التاريخية للصهيونية ، وإن كان يعطى ثقلًا خاصا للمذابح التى حدثت لليهود فى بعض البلاد ، بالإضافة إلى تيار مناهضة السامية .

ومعالجة الكاتب الصهيونى تفتقد إلى الموضوعية فى سرد الأحداث ، ويحكى التطور التاريخى للصهيونية من وجهة نظر ذاتية ، تعبر عن مفهوم الذات الصهيونية تعبيرا بارزا ، باعتباره يركز على اليهود تاريخًا وثقافة وسياسة ، ويتجاهل الآخر ، والذى هو هنا الشعب الفلسطينى المستقر على أرضه منذ آلاف السنين . وهذا الاتجاه هو الذى دفع بعض قادة إسرائيل فى الستينات إلى أن يزعموا أنه ليس هناك شعب فلسطينى .

٢ – ومن ناحية أخرى تمثل المقالة الثانية التى تسرد **التاريخ الصهيونى** وثيقة نادرة تحتاج إلى تحليل متعمق – ليس هنا مجاله – للكشف عن النظرة الصهيونية للتاريخ ، والتى يمكن الكشف عنها بدراسة منهجية التحقيب التاريخى Periodization ، أى تقسيم التاريخ إلى حقب متميزة .

ذلك أنه – كما هو معروف فى علم التاريخ – أن اختيار بعض السنوات باعتبارها بداية لحقبة أو نهاية لها ، عادة ما يحمل وجهة نظر قد تتسم بالذاتية المفرطة لمن يقوم بها . ومن هنا إذا أردنا أن نكشف عن تجليات مفهوم الذات الصهيونية فى ضوء تحليل سردها التاريخى ، فيمكن أن تتأمل كيف قسمت الوثيقة التى تحت أيدينا فترات التاريخ .

ينقسم التاريخ الصهيونى – وفقا للوثيقة – إلى فترة أولى تبدأ عام ١٨٧٠ وتنتهى عام ١٨٩٦ ، وهى حقبة « رواد الصهيونية » ونجد فيها تقسيمات فرعية كما يلى :

* ١٨٧٠ – ١٨٨٠ تأسيس جمعيات أحباء صهيون فى روسيا ورومانيا والتى دعت إلى الاستيطان الزراعى فى أرض فلسطين .

* عام ١٨٧٠ أنشئت مدرسة زراعية فى شمال يافا .

* ١٨٨٢ – ١٩٠٣ موجة الهجرة الأولى وكانت هجرة واسعة المدى ، أعضاؤها أساسا من روسيا من بينهم عديد من أعضاء جمعية أحباء صهيون .

عام ١٨٨٢ صدور كتاب بنسكر « التحرر الذاتى » الذى يدعو إلى إنشاء وطن قومى لليهود . ووصول أعضاء حركة بيلو bilu . التى كانت تدعو إلى إحياء الشعب اليهودى بالاستيطان فى أرض إسرائيل . وصل هؤلاء الأعضاء وكونوا أول جماعة منظمة من المستوطنين الأوئل الذين تطلق عليهم الوثيقة « الرواد الأوائل » .

* عام ١٨٨٥ وفيه يصك ناثان بيرنابادم مصطلح الصهيونية داعيا لأفكار حركة أحباء صهيون .

* عام ١٨٩٠ تأسست لجنة اللغة العبرية بقيادة ابن يهودا أبى اللغة العبرية كجزء من صراعه لإحياء العبرية كلغة حديثة .

* عام ١٨٩١ الفيلسوف اليهودى آحاد هاعام يزور فلسطين ويدعو إلى إنشاء مركز ثقافى يهودى .

* عام ١٨٩٦ يكتب هرتزل أبو الصهيونية السياسية « الدولة اليهودية » مؤكدا أن مشكلة مناهضة السامية يمكن أن تحل عن طريق إنشاء دولة يهودية .

الفترة الثانية ١٨٩٧ - ١٩٩٧ وتطلق عليها الوثيقة سنوات التحدى والإنجاز .

بين ١٨٩٧ وعام ١٨٩٩ عقدت المؤتمرات الصهيونية : الأول والثانى والثالث الذى تبنى دستورًا كاملا للصهيونية .

وبين ١٩٠٠ و١٩٠٩ عقدت المؤتمرات الصهيونية : الرابع والخامس والسادس والسابع كما حدثت الهجرة الثانية .

ثم حقبة أخرى من ١٩١٠ حتى ١٩١٩ انعقد فيها المؤتمر الصهيونى العاشر ثم الحادى عشر ووقعت الحرب العالمية الأولى .

وحقبة أخرى من عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٢٩ حدثت فيها الهجرة الثالثة بالإضافة إلى وقائع أخرى هامة .

ثم حقبة ١٩٣٠ حتى ١٩٣٩ والتى حدثت فيها الهجرة الخامسة . وتوالت الحقب ١٩٤٠ - ١٩٤٩ إلى حقبة ١٩٥٠ - ١٩٥٩ ، إلى حقبة ١٩٦٠ - ١٩٦٩ وحقبة ١٩٧٠ - ١٩٧٩ ، وحقبة ١٩٨٠ حتى ١٩٨٩ وأخيرا من عام ١٩٩٠ حتى اليوم .

ولا يتسع المقام لتحليل منطق التقسيم إلى هذه الحقب ، أو تحليل الوقائع الأساسية فى كل حقبة .

غير أن التأمل الموضوعى فى هذه الوثيقة يجعلنا نخلص إلى ثلاث سمات أساسية فى التاريخ الصهيونى :

- ازدواج العمل الفكرى مع العمل التنظيمى والممارسة العملية .

- التدرج والتراكم والإصرار على الهدف الاستراتيجى (إنشاء الدولة الإسرائيلية) .

- الاهتمام بالجوانب الفنية الأكاديمية والإعلامية والمالية ، والاستيطانية وخصوصا شراء الأراضى .

٣ - المقالة الثالثة التى تدرس **الفلسفات الصهيونية** تقرر أنه دخل صفوف الصهيونية يهود ينتمون إلى أيديولوجيات شتى ، من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ، ومنهم الدينى والعلمانى ، وظهرت بينهم الاختلافات ، مع وحدة الهدف وهو إنشاء الدولة الإسرائيلية فى نهاية المطاف .

ويصنف الكاتب الفلسفات الصهيونية إلى : الصهيونية السياسية ، والصهيونية العملية ، والصهيونية التأليفية ، والصهيونية الاشتراكية ، والصهيونية التنقيحية ، والصهيونية الدينية ، والصهيونية العامة ، والصهيونية الروحية . ونتيجة التحليل الأساسية لهذه المقالة هى أن الصهيونية سمحت بالتعددية السياسية إلى أقصى مدى ولكن فى حدود الاتفاق الاستراتيجى على إنشاء الدولة . ومن ناحية أخرى الدراسة المتعمقة لهذه الفلسفات السياسية ، يمكن أن توضح المنطق الكامن وراء

سياسات الأحزاب الإسرائيلية ، وسبب الانتقال فى السياسات الحكومية من موقف إلى آخر ، فى ضوء التخلى عن موقف أيديولوجى محدد إلى منطق أيديولوجى آخر .

ثانيا : الحركات الصهيونية والعمليات الاجتماعية :

نحلل فى هذا القسم ثلاث مقالات هى : المستعيدون للأرض ، والهجرة والاستيعاب والحركات الشبابية .

١ - **استعادة الأرض** ، كما يقرر الكاتب الصهيونى نافتالى جرينود ، فى العصور الحديثة تعنى شراء واستصلاح واستيطان الأرض فى إسرائيل الكبرى . بواسطة الصندوق القومى اليهودى أو الأفراد العاديين أو المنظمات أو بواسطة دولة إسرائيل ذاتها وذلك فى المرحلة الأخيرة .

وينبغى أن نقف طويلا بالتحليل أمام كلمة « الاستعادة » فهى تعنى أساسا أن الأرض الفلسطينية كانت يهودية فى الأصل ثم اغتصبت منهم ، ومن هنا فعملية شرائها واستصلاحها والاستيطان فيها هى استعادة لأرض كانت ملكا لليهود من قبل .

ومن الواضح أن فى ذلك تزييفا صريحا للتاريخ ، ولكنه تزييف رأى قادة الصهيونية أنه ضرورى لسببين : أولًا : لاستكمال الأسطورة الصهيونية المبدئية التى ادعت أن علاقة اليهود بفلسطين كانت قديمة قدم التاريخ ، وثانيا : لأن الهدف الاستراتيجى الصهيونى كان - وما يزال حتى الآن فى عهد الليكود بزعامة نتانياهو - توسيع رقعة الأراضى الفلسطينية المغتصبة سواء بالشراء الحقيقى أو الصورى ، أو بمجرد الاستيلاء على ما يطلق عليه أملاك الغائبين ، أو بالمصادرة بزعم

أهمية الأرض لأغراض الدفاع . لقد كانت الأرض منذ الصراع الصهيونى العربى أحد مجالات النزاع الرئيسية .

ويتتبع الكاتب الصهيونى البدايات الأولى لما يطلق عليه حركة « استعادة الأرض » منذ الحقبة العثمانية المتأخرة حيث قام السير موسى مونتفيور (١٧٨٤ - ١٨٨٥) بأول عملية لشراء الأرض ، فقد اشترى عشرة هكتارات فى يافا عام ١٨٥٥ ، ولم يأت عام ١٨٨٢ حتى كان قد أتم اليهود شراء ٢٢٠٠ فدانا . ويتابع الكاتب تصاعد عملية الاستيطان وبناء المستعمرات فى مرحلة الانتداب البريطانى (١٩٢٠ - ١٩٤٨) .

استعادة الأرض اتخذت معانى جديدة بعد قيام الدولة الإسرائيلية عام ١٩٤٨ . وذلك لأنها لم تعد تحدها أى قيود بعد أن باشرتها الدولة بطريقة مباشرة وغير مباشرة . وفى عام ١٩٦٠ أنشئت « مؤسسة أراضى إسرائيل » لإدارة أراضى الدولة بالإضافة إلى ٨٠,٠٠٠ هكتار يملكها الصندوق القومى اليهودى وصدر فى نفس العام القانون الخاص بهذه المؤسسة ، مقررا أن أملاك الدولة والصندوق لايجوز بيعها . وهكذا نجد فى عام ١٩٦٨ أن هيئات الدولة تملك ٩٢٪ من مساحة إسرائيل .

ويقرر الكاتب أن الصندوق القومى اليهودى هو أبرز الهيئات التى عملت على تحويل الشعار التوراتى « استعادة الأرض » من مجرد شعار إلى حقيقة واقعة .

٢ - تتابع المقالة الثانية **المراحل الأساسية للاستيطان اليهودى فى فلسطين** وتخلص إلى أن المستوطنات الإسرائيلية وسواء كانت تنتمى إلى الكيبوتزات أو الموشافات تحاول تكييف نفسها مع الحياة الحديثة وأصبحت أقل مركزية ، وتركز

على الأسرة والفرد فى نفس الوقت ، وتستثمر فى الصناعة والزراعة معا .

٣ - وتحلل المقالة الثالثة بالتفصيل **الهجرات اليهودية إلى فلسطين** ومراحل عملية استيعاب المهاجرين .

٤ - والمقالة الرابعة عن **حركات الشباب** التى تجد مبرراتها كما يقرر الكاتب فى أنها تقدم الفرصة للمراهقين لكى يضعوا مشاعرهم ومثالياتهم موضع التنفيذ ، من خلال مساعدة الآخرين على بناء أراضيهم ، ومن ناحية أخرى إقامة علاقات وثيقة مع الشباب فى العالم . وتتابع المقالة النشأة التاريخية لحركات الشباب ، وأنواعها المختلفة والمتنوعة .

ثالثًا : المؤسسات والأنساق :

نحلل تحت هذا العنوان أربع مقالات عن قوات الدفاع الإسرائيلية وإنجازات العلم والتكنولوجيا والإنجازات الاقتصادية والثقافية فى إسرائيل من وجهة النظر الرسمية الإسرائيلية .

١ - تتابع المقالة الأولى **النواة الأولى لقوات الدفاع الإسرائيلية** منذ تبلور المجتمع اليهودى فى فلسطين عام ١٨٧٠ حتى نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، حيث استقرت ممارسة الدفاع عن المستعمرات الإسرائيلية . ومن العلامات البارزة فى هذا المجال إنشاء مؤسسة هاشومير (الحارس) عام ١٩٠٩ للقيام بمهام الحراسة والأمن للمستعمرات اليهودية عبر أرجاء البلاد . وتوضح المقالة الصور المختلفة لتعاون اليهود مع الجيش التركى أولا ثم مع الجيش الإنجليزى ، وتقسم مراحل التطوير المختلفة إلى مرحلة العشرين عاما الأولى من الانتداب البريطانى (١٩١٩ - ١٩٣٦) ثم مرحلة الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ -

١٩٤٥) وفى هذه الحقبة ظهرت ثلاث مؤسسات عسكرية هى : كتائب الشباب والقوة الضاربة (البالماخ) والهاجاناه . ثم نأتى لمرحلة الصراع ضد الإنجليز (١٩٤٥ - ١٩٤٨)، ثم ما نطلق عليه «حرب الاستقلال» (١٩٤٨ - ١٩٤٩).

وقد ورثت قوات الدفاع الإسرائيلية التى أنشئت فى أول يونيو ١٩٤٨ تراث الهاجاناه وتطورت حتى وصلت إلى وضعها الراهن .

٢ - تتابع المقالة الثانية **إنجازات العلم والتكنولوجيا فى إسرائيل وتركز** - تاريخيا - على إنشاء التخينون (المعهد الإسرائيلى للتكنولوجيا) عام ١٩٢٤ ، والجامعة العبرية التى أسست عام ١٩٢٥ ومعهد وايزمان للتعليم الذى أنشئ عام ١٩٤٦ .

وتتناول المقالة تطور العلم والتطوير فى الجامعات الإسرائيلية التى يدرس فيها فى الوقت الراهن ١٠٠,٠٠٠ ألف طالب منهم ١٨٪ من طلبة مرحلة البكالوريوس يدرسون العلوم وخمسون فى المائة من طلبة الدكتوراه يدرسون العلوم أو الطب .

وتنفق إسرائيل سنويا ٢٦٠ مليون دولارا على البحث العلمى ، وهناك أيضا حركة نشطة للبحث والتطوير فى المجال الصناعى . وهناك تركيز شديد على وضع نتائج البحث العلمى موضع التنفيذ . كما أنه تم تطوير التعليم التكنولوجى وفق برنامج ناجح معروف باسم «تمدا ١٩٩٨» حيث تم التركيز على تعليم الرياضيات والعلم والتكنولوجيا فى كافة المراحل التعليمية .

قد شهدت إسرائيل - كما تقرر المقالة - فى السنوات الأخيرة ارتفاعًا ملحوظًا

فى معدلات الإنتاجية الصناعية ، كما أن معدل النمو وصل إلى ٥٪ ويشارف ٦٪ وهو يعد من أعلى المعدلات فى العالم الصناعى . ويتضح من العرض الحرص على الربط بين البحث العلمى والتنمية ، والتركيز على تنفيذ نتائج البحث العلمى .

٣ - المقالة الثالثة تتعلق **بالإنجازات الاقتصادية** . وهى تقرر أن الاقتصاد الإسرائيلى نجح نجاحا باهرا فى مواجهة أربعة تحديات رئيسية : الأمن ، وتحمل عبء استيعاب المهاجرين ، والحاجة إلى تأسيس بنية تحتية للاقتصاد ، وتوفير خدمات الرعاية الاجتماعية .

وتلخص المقالة الإنجازات الاقتصادية الإسرائيلية فى عدد من النقاط الأساسية كما يلى :

- أصبحت إسرائيل إحدى الدول القائدة فى مجال النمو الاقتصادى حيث بلغ معدل النمو ٥٪ سنويا فى التسعينات .

- ألحقت إسرائيل بقائمة أعلى ٢٠ دولة من ناحية معدلات نصيب الفرد من الدخل القومى .

- الوصول إلى أعلى معدلات التصدير فى العالم .

- مواجهة تأثيرات التضخم بطريقة فعالة .

- الوصول فى أغلب السنوات إلى معدل التشغيل الكامل ، مع تحمل عبء استيعاب ٢,٦ مليون مهاجر .

- جعل الإنتاج الصناعى وخصوصًا فى مجال قطاع التكنولوجيا الدقيقة العامل الأساسى فى الاقتصاد الإسرائيلى .

- تطوير أكثر نظم الزراعة تطورا فى العالم .

٤ - وفيما يتعلق **بالإنجازات الثقافية** تركز المقالة على التحول المهم فى الاستراتيجية الثقافية التى كانت تركز فى البداية على خلق بوتقة صهر Melting Pot يصهر فيها اليهود مهما كانت خلفياتهم الثقافية ، وسواء كانوا ينتمون إلى اليهود الغربيين أو الشرقيين . غير أنه سرعان ما ثبت فشل هذه السياسة .

وتم الإقلاع عنها فى ضوء استراتيجية ثقافية جديدة تركز بشكل غير مبالغ فيه على ما يجمع اليهود جميعا ، وفى نفس الوقت تعطى الفرصة لكل طائفة منهم لكى تعبر عن نفسها ثقافيا بالطريقة التى تراها .

وفى المقال تفصيلات متعددة عن أجيال المبدعين الإسرائيلين المتتالية والسمات التى تميز كل جيل .

وتركز المقالة فى النهاية على التطور البالغ الذى حدث فى إسرائيل وحولها من مجرد شعب منكفئ على ذاته إلى شعب منفتح على الثقافة العالمية بكل تياراتها المتعددة . وهناك الآن فى إسرائيل سعى دائب لتأكيد الهوية الثقافية مما ينعكس إيجابيًا على حركة الإبداع فى مختلف الآداب والفنون ، كل ذلك بالإضافة إلى اتساع رقعة من يتمتعون بثمار الإبداع بمختلف صوره .

رابعا : العلاقة مع الآخر :

نحلل فى هذا القسم مقالتين : الأولى عن قاموس الصهيونية ، والثانية عن الحروب العربية الإسرائيلية .

١ - ابتداء نقرر الأهمية الكبرى لتحليل **قاموس الصهيونية** ، لأن المصطلح

الصهيونى يعكس فى كثير من الأحيان تجليات مفهوم الذات الصهيونية بكل ما يتضمنه هذا المفهوم من محاولة الارتداد إلى التراث اليهودى لإثبات استمرارية المسيرة الصهيونية منذ القدم حتى الوقت الراهن ، أو التحيز فى تصور الوقائع التاريخية ، أو النظرة السلبية للأغيار وخصوصا بالنسبة للعرب ، أو محاولات تزييف التاريخ بكل أنماطها . ولعل إطلاق اسم « حرب الاستقلال » على الحرب اليهودية العربية عام ١٩٤٨ أبلغ دليل على خطورة استخدام المصطلح الصهيونى لتزييف التاريخ ، لأن هذه الحرب ببساطة لم تكن إلا حربا استعمارية قامت بها قوات الاستعمار اليهودى التى مارست اغتصاب الأرض الفلسطينية منذ عقود طويلة وليس « استعادتها » كما يقرر المصطلح الصهيونى .

ومن بين الأمثلة البارزة للمصطلح الصهيونى الذى يعكس الأيديولوجية الصهيونية ذاتها إطلاقهم لفظ Aliya على كل موجة من موجات الهجرة إلى فلسطين ، وهى تعنى أساسًا « الصعود » وكأن كل هجرة من الشتات اليهودى إلى فلسطين هى « صعود » إلى أرض الميعاد .

وقد التفت مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية فى الأهرام منذ وقت مبكر إلى أهمية التحليل النقدى للمفاهيم والمصطلحات الصهيونية فأصدر للدكتور عبد الوهاب المسيرى عام ١٩٧٥ موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية « رؤية نقدية » ، والتى كانت فى الواقع محصلة جهد جماعى شارك فيه عديد من باحثى المركز تحت إشرافه . وهو المشروع الذى يعمل المسيرى على تطويره فى الوقت الراهن لكى يتحول إلى موسوعة شاملة .

٢ - وتظهر تجليات مفهوم الذات الصهيونية كأبرز ما تكون فى **الحروب الإسرائيلية العربية** . ذلك أن المسلك الإسرائيلى فى الحروب ، سواء فى القيام بالعمليات العسكرية ، أو فى التعامل مع أسرى الحرب ، أو فى حالات الانسحاب الإسرائيلى بعد نهاية حروب ، تكشف بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن انعكاسات مفهوم الذات الصهيونية على سلوك الإسرائيلى .

ومقالة نيناتل لورش تبدأ بالحديث عن « حرب الاستقلال » (١٩٤٧ - ١٩٤٨) ، وقد سبق لنا أن أشرنا إلى دلالة استخدام مصطلح « حرب الاستقلال » للدلالة على الحرب الاستعمارية التى شنتها إسرائيل ضد الشعب الفلسطينى وضد القوات المسلحة العربية التى حاولت إنقاذ ما يمكن إنقاذه .

وفى تعرض المقالة للعدوان الإسرائيلى على مصر عام ١٩٥٦ ، والذى كانت إسرائيل فيه مجرد طرف صغير بالإضافة إلى فرنسا وإنجلترا ، تطلق عليها بكل بساطة حملة سيناء ١٩٥٦ ، ورمزها الكودى « عملية قادش » .

وتتجاهل المقالة تماما التآمر الدولى الواسع المدى الذى سبق الحرب ، وأدى إلى شن العدوان على مصر ، والكاتب الصهيونى يعرض إنجازات الجيش الإسرائيلى بعبارات يتضح منها الفخر الشديد ، ويقرر أن هذه الحرب أعطت إسرائيل فرصة لالتقاط أنفاسها لمدة عشر سنوات .

ثم تحكى المقالة قصة حرب يونيو ١٩٦٧ من وجهة النظر الإسرائيلية ، وكأن مصر هى التى قامت بالعدوان على إسرائيل ، مع أن الوثائق الرسمية التى كشف عنها النقاب بعد ذلك بسنوات ، تثبت أن العدوان الإسرائيلى كان ثمرة اتفاق وتآمر بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل .

وحين يتعرض الكاتب الإسرائيلى لحرب أكتوبر ١٩٧٣ والتى يطلق عليها « حرب يوم كيبور » لا يستطيع إلا أن يعترف بالفشل الإسرائيلى الذريع فى التنبؤ بوقوع الحرب ، بالإضافة إلى اعترافه بالإنجازات العسكرية البارزة المصرية والسورية فى الأيام الأولى للحرب ، وإن كان يعود فيقرر أن الهجوم المضاد الإسرائيلى نجح فى إعادة امتلاك زمام المبادرة .

ويلفت النظر فى كاتب المقالة أنه يعتبر حرب أكتوبر ١٩٧٣ من وجهة النظر الإسرائيلية كانت تمثل فشلا واضحا بالنسبة لإسرائيل . ويقرر أن عدد القتلى من الجيش الإسرائيلى وصل إلى ٢٦٨٨ قتيلا وهو رقم كبير فى سجل القتلى الإسرائيليين فى حروب إسرائيل . وقد أدى الفشل إلى استقالة رئيس الأركان الإسرائيلى ديفيد العازر ، ومدير المخابرات الإسرائيلية .

ولا ننسى فى هذا الصدد أدبيات الهزيمة الإسرائيلية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ والتى كان عنوانها البارز « التقصير » وهى تتشابه إلى حد ما مع أدبيات الهزيمة العربية فى حرب يونيو ١٩٦٧ والتى كان عنوانها البارز « النقد الذاتى بعد الهزيمة » وهو عنوان كتاب مهم للمفكر السورى المعروف صادق جلال العظم .

ويظهر تشويه التاريخ واضحا فى تعريف المقالة للاجتياح الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ والتى يطلق عليها تسمية زائفة ، لا علاقة لها بالواقع « عملية سلام الجليل » .

وتتعرض المقالة للانتفاضة وما أدت إليه من مضاعفة أعباء الجيش الإسرائيلى ، ثم تذكر حرب الخليج عام ١٩٩١ ، والتى شغلت فيها إسرائيل بحماية العمق المدنى فى المقام الأول .

وتسجل المقالة أنه قد سقط فى حروب إسرائيل ضد العرب ٢٠٣٩ عسكريا

حتى مارس ١٩٩٧ وهو - كما يقرر الكاتب الصهيونى - رقم كبير بالنسبة لدولة صغيرة .

ويخلص فى النهاية إلى أنه مادامت هناك دول لم تعترف بعد بإسرائيل فإن مهمة الجيش الإسرائيلى فى الدفاع ستظل قائمة .

خامسًا : الصهيونية وما بعدها ، نظرة مستقبلية :

قد يكون ختام هذا الملف الإلكترونى الذى أعدته وزارة الخارجية الإسرائيلية ونشرته على شبكة الإنترنت عن « مائة عام على الصهيونية » من أهم مواده . ذلك لأن المقالة التى كتبها العازر سكويد بعنوان « أهداف الصهيونية اليوم » زاخرة بالأفكار الهامة والملاحظات الذكية التى تثبت متابعة الكاتب الدقيقة للتيارات الفكرية المتصارعة فى العالم اليوم ، وخصوصا ما يتعلق منها بحركة ما بعد الحداثة وانعكاساتها الأيديولوجية والسياسية على مختلف بلاد العالم .

ويقرر الكاتب الصهيونى فى البداية أنه بمناسبة العيد المئوى للصهيونية (١٨٩٧ - ١٩٩٨) والعيد الفضى لدولة إسرائيل (١٩٤٨ - ١٩٨٨) فإن المنظمة الصهيونية العالمية مشغولة بمواجهة حاجات إسرائيل واليهود فى المهجر ، وهى لذلك معنية بإعادة التفكير وتحديث افتراضاتها ، وإعادة هيكلة تنظيماتها من أجل تحقيق هذا الهدف .

وفى مقدمة المتغيرات التى تدعو المنظمة لذلك مجموعة مترابطة من الأسباب يمكن إيجازها فيما يلى :

١ - انهيار الاتحاد السوفيتى بكل آثاره ، وأهمها الهجرة الجماعية من الاتحاد

السوفيتى السابق إلى إسرائيل ، حيث نجح المهاجرون الجدد فى التكيف الاجتماعى والاقتصادى . وفى تقدير الكاتب الصهيونى أنه خلال العقد القادم سيهاجر كل اليهود تقريبا فى الاتحاد السوفيتى السابق إلى إسرائيل ، وحين يحدث ذلك فإن إسرائيل ستضم أغلبية يهود العالم .

٢ - نجاح عملية السلام ، لو تم ذلك ، ستجعل إسرائيل تدخل شبكة من العلاقات الطبيعية مع جيرانها ومع النظام السياسى الدولى .

٣ - هناك تغيرات أساسية حدثت فى البنية الاجتماعية لإسرائيل وفى اتجاهاتها السياسية ، وكذلك بين يهود المهجر .

٤ - ويمكن القول - كما يقرر الكاتب الصهيونى - إن الشعور السائد بين يهود المهجر جزء من عملية تطبيع بينهم وبين البلاد التى يعيشون فيها ، فقد تنامى إحساسهم بأنهم يعيشون فى وطنهم ، كما أن مركز نشاطهم ومصالحهم تتركز فى البلاد التى يقيمون فيها .

ويقرر الكاتب أنه - وضع فى الاعتبار كل هذه المتغيرات - ينبغى إعادة دراسة الموقف السياسى والثقافى فى ضوء توجيه كل الجهود لتحقيق أهداف الصهيونية .

ولكن ماذا تعنى الصهيونية فى عالم اليوم ؟

يتعرض الكاتب لما يسميه « عرض مابعد الصهيونية » Post-ZionistSyndrome وهو يعنى أساسا - أنه مهما كانت الأسباب - فإن المشروع الصهيونى قد وصل إلى منتهاه ، يعنى أنه قد حقق أغراضه التى قام من أجلها ، وينبغى أن ينتهى .

ومشكلة « عرض ما بعد الصهيونية » بالغة التعقيد - كما يقرر الكاتب

الصهيونى - ويسود بشأنها الخلافات بين المفكرين الإسرائيليين ، ويمكن القول إن تجلياته الأيديولوجية لا تمثل سوى أراء عدد محدود من المؤيدين ، ولكن هؤلاء لهم صوت عال ومسموع فى الإعلام وهم يمثلون - فى رأيه - وجهات نظر نخب لها تأثير محدود على المجتمع الإسرائيلى .

غير أن « ما بعد الصهيونية » هى أيضًا عملية سياسية وسوسيولوجية ، وهى بهذا الوصف تطال جبهة أعرض بكثير مما يعتقده الكثيرون ، كما أن تأثيراتها بالغة العمق ، فهى تنعكس على السياسات الحكومية ، كما تظهر تأثيراتها أيضا فى اتجاهات بعض الأحزاب السياسية .

الظاهرة من المنظور الأيديولوجى :

ينبغى معالجة ظاهرة « ما بعد الصهيونية » - كما يقرر الكاتب الصهيونى - أولا من المنظور الأيديولوجى ، وهناك نمطان من ما بعد الصهيونية .

النمط الأول : ينظر إلى الصهيونية من زاوية تحبيذها ، وقد يكون من منطلق الإسراف فى التأييد ، ولكنه يخلص إلى أن الصهيونية قد حققت كل أهدافها ولم يبق منها شىء بعد . فتطبيع الشعب اليهودى هى عملية قد تمت تماما كما تصورها هرتزل . ومن هنا فأنصار هذا الرأى يقولون دعونا الآن نسعى إلى تحقيق الأهداف العادية التى تسعى لها الأمم المستقرة بأمان فى دولها ، مثل رفع مستوى المعيشة ، وترقية مستوى الوجود الاجتماعى والثقافى .

وقد حدث هذا التحول الفكرى عقب حرب ١٩٦٧ ، حينما نشأ الإحساس أن دولة إسرائيل قد أثبتت أنها رسخت دعائمها بشكل كاف ، ولم يعد من الممكن « إلقاؤها فى البحر » ، وأنه قد حان وقت تحقيق هدف تطبيع علاقاتها مع جيرانها

العرب . وكما نعرف فهذا الاتجاه مثل خلفية الاستقطاب فى الجدل العام حول طبيعة الخطوات التى ينبغى اتخاذها فى هذا المجال .

وأصحاب هذا الاتجاه يرون أن إسرائيل قد حققت هدفها الطوباوى ، وأن عليها أن تتصرف الآن لخلق « إسرائيل الكبرى » من خلال الهجرة الجماعية من الاتحاد السوفيتى السابق ، مما يجعلها مركزا لتجمع يهود الشتات . كما أن هدفها فى السلام قد تحقق بعد توالى اعتراف جيرانها بها ، وهذا السلام سيعد تتويجا للمشروع الصهيونى .

النمط الثانى : والذى ينزع إلى الارتداد إلى حقبة ما قبل الهولوكست وإلى أيديولوجية ما قبل إنشاء الدولة . ويقرر أنصار هذا الاتجاه أنه حتى قبل إنشاء الدولة الإسرائيلية لم يكن يتبنى أهداف الحركة الصهيونية إلا أقلية من اليهود ، وعارضتها طوائف مختلفة من الشعب اليهودى . غير أنه بعد الهولوكست وإنشاء الدولة ، بدأ يتبلور رضاء يهودى واسع ، وأصبحت الصهيونية موضع اتفاق ، وظل هذا الإجماع حول الصهيونية فى حرب ١٩٦٧ ، غير أنه بعد حرب الاستنزاف (١٩٦٨ - ١٩٧٠) وحرب أكتوبر ١٩٧٣ بدأت تتصاعد أصوات تدعو لإعادة تقييم أهداف الصهيونية ، والنظر فى : هل أن مسلماتها صحيحة أم لا ؟

والعامل الأول وراء هذه الدعوة جاء من بين صفوف الشباب الإسرائيلى الذين ذهبوا إلى أن الصهيونية تتطلب ثمنا شخصيا باهظا لتحقيق أهدافها ، وخصوصا أن ضحايا تحقيق هذه الأهداف هم الشباب فى المقام الأول .

ويمكن رد هذه الاتجاهات إلى الصدمة العنيفة التى أصابت المجتمع الإسرائيلى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

ومن هنا يثير أنصار هذا الاتجاه سؤالا كبيرا : هل الصهيونية حقا فيها حل لمشكلات الشعب اليهودى والصعوبات التى يواجهها ؟ وإذا أضفنا إلى ذلك إحساس أجيال الشباب الإسرائيلى أن يهود المهجر بإقامتهم خارج إسرائيل قد أنقذوا أنفسهم من مخاطر الهولوكست والإبادة ، فمعنى ذلك أن الشباب فقط هم الذين يتحملون كل هذه المخاطر . واذا أضفنا إلى ذلك اتجاهات تعبر عن الشعور بالذنب إزاء ما لحق بالفلسطينيين من مظالم ، فإننا نستطيع تفهم منطق هذه الاتجاهات .

والنمط الثالث : من الاتجاهات يتمثل فى أن اتجاه ما بعد الحداثة الأمريكى بدأ يغزو المجتمع الإسرائيلى بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ويحدث فى بنيته تغيرات عميقة فى مجالات الاتجاهات السياسية والقيم الاجتماعية .

وقد بدأت التساؤلات تثار حول التناقض بين أن تكون إسرائيل دولة يهودية ، وأن تكون دولة ديموقراطية فى نفس الوقت .

ووفقا لهذا الرأى أنه إذا كانت إسرائيل تريد أن تكون ديمقراطية حقا ، فعليها أن تتوقف عن أن تكون دولة يهودية . بمعنى ضرورة أن تكون إسرائيل هى دولة كل سكانها .

غير أن هذا المنظور من شأنه فى الواقع إلغاء الجوهر الصهيونى لإسرائيل ، لأنها إن لم تكن دولة يهودية ، فعليها أن تتوقف عن ممارسات استيعاب اليهود المهاجرين ، كما أن عليها أن تكف عن تنمية اليهودية باعتبارها نموذج الهوية الثقافية والقومية .

ما سبق هو موجز للأفكار الأساسية الخاصة بما بعد الصهيونية . وقد أدت

عوامل متعددة أبرزها تمثل المفاهيم الرئيسية للديمقراطية الليبرالية اليهودية ، وتطبيق المفاهيم الاجتماعية لهذه الديمقراطية ، وأيديولوجية السوق الحر ، وهجر التوجهات الاشتراكية فى السياسات الاجتماعية ، والجهود التى بذلت لتكامل الطوائف اليهودية فى التعليم والجيش ، وإطلاق طاقات المنافسة إلى غير ما حد ، كل هذه العوامل أدت فى الواقع إلى تحويل أفكار ما بعد الصهيونية النظرية إلى ممارسة وسلوك ملموس فى المجال الاجتماعى والاقتصادى .

وتبقى النظرة إلى المستقبل . وفى هذا الصدد يقرر الكاتب الصهيونى أن الهدف الرئيسى للصهيونية اليوم ينبغى أن يتحول ليصبح ، أن تكون إسرائيل هى المركز الروحى ليهود العالم ، وفى ذلك تطبيق لأفكار الفيلسوف اليهودى المعروف آحاد هاعام ، والذى كان يعارض الصهيونية السياسية ، ويدعو للتركيز على الأهداف الثقافية والروحية .

بهذا تنتهى دراستنا لمفهوم الذات الصهيونية والتى نعتبرها فى الواقع مجرد دراسة استطلاعية من شأنها أن تفسح الطريق لدراسة أكثر عمقا ، تطبق فيها مناهج للتحليل الأيديولوجى بشكل شامل ، من شأنه أن يكشف مختلف التجليات الثقافية والسياسية والاجتماعية للذات الصهيونية .

أ. د. أحمد صدقى الدجانى :

ما طرحه أ. السيد يس يمثل فى طياته تحديًا لنا ، علينا أن نستجيب له بجهد فكرى ، ونستذكر معًا مجالًا آخر : ما هو مفهومنا للصهيونية ؟

الصهيونية كما بلورها فكرنا العربى المعاصر ؛ هى حركة استعمار استيطانى غربى عنصرى ، اصطنع لليهود قومية - واليهودية دين - وحاول بكل السبل أن يُوجد قاعدة فى قلب وطننا العربى لأهداف نعرفها .

فى الحديث القيم الذى طرحه أ. السيد يس ، نقف أمام الحق وأمام المدارس المختلفة ، ونتعمق فى هذه المدارس ، ومع أنهم لا يقولون الصراحة ، إلا أن لهذه المدارس (الصهيونية) علاقة بالصلة بين الصهيونية وقوى الاستعمار الغربى .

فهناك الخلاف الذى اشتد بين مدرسة « بن جوريون » ومدرسة « جابوتنسكى » فى الثلاثينات والأربعينات مثلًا ، لقد أرادت المدرسة التنقيحية أن تقيم علاقة متوازنة مع البريطانيين .

وفى قراءتنا للحقب والمراحل الصهيونية ، نستذكر الجهود التى قام بها مفكرون عرب .. الصهاينة يبدءون بعام ١٨٧٠ ، لكننا اخترنا عام ١٨٨٢ ، لأنه عام أول هجرة يهودية إلى فلسطين ، وهناك المرحلة الثانية التى تبدأ عام ١٩١٧ مع الاستعمار البريطانى لفلسطين ، والمرحلة الثالثة ، وهى مرحلة ما بين ١٩٤٨ و١٩٦٧ ، مرحلة الغزو ، وثمة مرحلة التوسع بعد عام ١٩٦٧ ، وبعضنا يتنبؤ بمرحلة الانكماش ، إذا أخذنا عمليات الانسحاب من الأرض المحتلة ، لكن هناك اختلاف حول هذه المرحلة ؛ لأن مشروع الشرق الأوسط يريد توسعًا جديدًا .

التحدى كبير فى القراءة التاريخية ، فهل صحيح أن أمر الصهيونية يعود إلى ٢٥٠٠ عام ؟ البحوث كلها تؤكد أن كلمة « صهيون » هى كنعانية ، ولها أصل عربى ، وتعنى « المكان المرتفع » ، وجبل صهيون موجود قرب بيت المقدس ، لكن هؤلاء الصهاينة يحاولون الاصطناع : هل صحيح أن الشعور بالعود إلى بيت المقدس يرتد إلى عهد بابل ؟ لقد زيفت الصهيونية المعنى الحقيقى لمعنى القدس لدى اليهودية ، التى هى قبلة وليست تعنى الاستيلاء الحسى .

الواقع أن حديث أ . السيد يس يثير شجونًا كثيرة ، ومهمتنا فى البحث التالى تتناول فكرة الحركة الصهيونية وخبرة التعامل الدولى .

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH AND STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية